بسم الله الرحمنِ الرحيم

أسمار- رجالُ الدهر بل فُرْسَانُه!.

(كُتِبَ منْ أكْثَرَ مِن 400 كتابٍ من المراجعِ العربيةِ والأجنَبِية)

حمداً لله؛ وبعد:

فإنَّ إنْحافَكَ – دامَ سَعْدُكَ – بالمُفاكَهاتِ الأنِيقَةِ؛ والأخبارِ اللطيفَةِ الرشيقَةِ؛ مِنْ مقاصِدِ هذه المُسامَرات!، وضَمُّ المُلْحَةِ إلى المُلْحَةِ أَحْسَنُ مِن ضَمِّ المَلِيحَةِ إلى المَلِيحَةِ!؛ والانتِقالُ من فائِدَةٍ إلى فائدةٍ أَرْوَحُ للنَفْسِ؛ وأبعدُ للسآمَة؛ فإن الأُذُنَ - كما يُقالُ - مَجّاجَةٌ وللنّفْسِ حَمْضَة!؛ وفي التَنْزِيلِ العزيز: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}.

<u>بينَ السّهْدِ والجَوَى:</u> (السهد: شِدَّةُ السهرِ؛ وتَواتُرُ أحْوَالِ المَحْبُوبِ على القَلْب، والجَوَى: ضِيقُ الصدرِ وكَتْمُ الهَوى)

وحينَ اخْتَرْتُ (لِسَمَرِ الليلَة) هذا العُنْوانَ رأيْتُهُ أجلَّ من أن أتَناوَلَ به جَميلَ بُثَيْنَةَ، أو أبا ضَمْرَةَ كُثَيِّرَ عَزّة، أو الخُزَاعِيَّ قَيْسَ بنَ ذُرَيْح صَاحِبَ لُبْنى، أو العَاشِقَ الذي اسْتَكْبَرَ عن التصريح باسْمِهِ واسم مَحْبُوبَتِهِ فَمَوَّهَ بالمَجنون وليْلَى!؛ ولذا لم يَترك الناسُ شِعراً فيه ذكرُ لَيلَى إلا نَسَبُوهُ إليه!؛ كما في خزانَةِ الأدبِ للبغدادي، أو أولَ عاشِقٍ ماتَ بالهَجْرِ عُرْوَةَ بنَ حِزام صاحبَ عَفْراء، أو الذي غَصَّ بالعِشْقِ ثلاثينَ عاماً عَبْدَ الله بنَ عَجْلانَ القُضاعِيَّ صاحِبَ هِند!، أو الخَبيرَ بأحْوالِ العُشاقِ الكِنانِيَّ القحْطانِيَّ ذا الرُّمة (بالضمِّ؛ وتُكسر: قطعةُ حَبلٍ تُجْعَلُ في عُنُقِ البعير) صاحِبَ السمراءِ مَيِّ ابْنَةِ طِلابَةَ؛ والذي يُضربُ به المثلُ في تعلقهِ بِصَاحِبَتِهِ؛ حتى حكى الحِمْيريُّ في (الروض المِعْطار) قولَ بعض الظُرفاء: إنما سُمِّيتْ (مَيّافارقين) لأن ذا الرّمةِ لَو رأى حُسنَها لقالَ لِصاحِبتِهِ: مَيُّ! فَارقيني ولا تُرافِقِيني!؛ يعني: أن حُسْنَ البلدَةِ يُنْسي ذا الرمةِ حُبّهُ لِصاحِبَتَه!؛ أو مالكَ بنَ الحَرْبِ الجَعْديَّ صاحِبَ جَنُوب، أو عَبدَ الله بنَ عَلْقَمَةَ صاحبَ حُبَيْش، أو نُصَيْباً صاحِبَ الكِنانِيَّةِ زينب، أو المُرَقِّشَ سالِخَ الأسدِ والنمرِ صاحبَ أسماء!، أو عُتْبَةَ بنَ الحُبابِ صاحِبَ رَيَّا، أو أبا عَمْرو بنَ كعب صاحبَ جاريَةِ اليمامَةِ؛ قيل: اسمُها: عقيلة؛ كما في كتابِ الزهرةِ لابنِ داودَ الأصفهاني؛ وهي من ولَدِ مُحرِّقِ بنِ النُعمانِ بنِ المنْذر، أو بَشارَ بنَ بُرْدٍ وصاحبَتَهُ عَبْدَة، أو كعبَ بنَ مالكٍ وأجملَ نِساءِ الحجازِ مَيْلاء، ولا...ولا...من غيرِ هؤلاء.

وإذا كانَ عُشاقُ العربِ على وَجْهِ العُمُومِ و عُشاقُ الأعرابِ مِنهم خُصوصاً لا يَدخُلُون في المَقصودِ فغيرُهُمْ مِنَ الأُمَمِ أولَى؛ إذ للعرَبِ في هذا الفنّ ما لَيْسَ لغَيْرِهِم!؛ فلا يَصْلُحُ أيْضاً أن نَتَناوَلَ بِحَدِيثِنا مَثَلاً (رُومْيُو وصاحِبَتَهُ جُولْيتَا) ابْنَةَ صاحبِ الدارِ الذي أقامَ حفلاً كبيراً؛ وكانَ (روميو) من بينِ المدعُوينَ فالتَقَيا على غيرِ مِيعاد؛ فَعَلِقَها وعَلِقَتْهُ!؛ في قصةٍ طويلةٍ بَينَهما؛ كتبَ فيها كثيرونَ من أشهرهم (شكسبير) و (بَنْدِلْيُو)؛ وخاتِمَةُ القصةِ عندَ الثانِي أدقُّ منها عندَ الأول؛ وخلاصَتُها أن رُومْيُوا احتَسى سُما لقتلِ نَفْسِهِ لما رآها جُثَةً هامِدَةً وظنَّها قدْ ماتت!؛ لكنها ما لَبِثَتْ أن استَيْقظتْ من الإغْماءِ فبلغَ من السرور مَبْلغاً نَسيَ مَعَهُ السم!؛ واستَمْتَعا بِلَحَظاتٍ من الحبِّ العارم؛ حتى إذا ما فعلَ السمُّ به فِعْلَهُ قتَلَتْ نَفْسَها بِسَيفِه!، وهكذا قِيل!.

ومِثلُ هذا يُقالُ في ((Tom وصاحِبَتِهِ (Sophia) الذي ما زالَ يطارِدُها بِحُبِّهِ لها حتى هربَتْ مِنْهُ لَمّا عَلِمَتْ أَخْطاءَهُ!.
على أن العُشاقَ وإن بَلَغُوا الغَايَةَ من الظُّرْفِ وحَصَّلوا أَركانَ الظرْفِ الأَرْبَعَةَ - التي ذكرها أبو الطيبِ الوشّاءُ في (المُوَشّى الذي سَمَّى فيه اثنينَ وثلاثينَ عاشقاً ومَعْشوقةً) - و هي: الأدَبُ، ومكارِمُ الأخلاقِ، واستِكْمَالُ المروءَةِ، والحبُّ العفيف!، **وإن ضُرِبَ بهم المَثَلُ** في دِقَّةِ الحِيلَةِ فقيلَ: ألْطَفُ من حيلَةِ عاشق!، **وإنْ كثُرت التصانيفُ في أخبارِهم وأحوالِهم**؛ ككتاب (مصارع العشاق) لأبي مُحمدِ السرّاج وهو أشهرُ ما أُلِّفَ في الباب؛ كما في (النجوم الزاهرة)، وكتابِ (محنة الطرف) للنوقاتي؛ وكتابِ (اعتلالِ القلُوب) للخرائِطيِّ السامِرِيِّ؛ وكتابِ (إخبارِ المُشْتاق) لابن النجار؛ و(ربيع المُتَيَّم) للرامُهُرْمُزِيِّ؛ وأَرْبَعَتُها ذُكِرتْ في (الوافي) للصفدي، و(روضةِ العشاق) للبكريِّ الشافِعِيِّ، و(تسكين الأشواق) للكرمي الحَنْبليِّ النابُلْسِيّ؛ كلاهما في (خلاصَةِ الأثر) للمُحِبِّي، و(وَسائلِ الأشواق) لمحمود بيك العَظْم؛ كما في (حِلْيَةِ البَشَرِ) لِلبَيْطار، وغَيرِها كثير!، **وإن قيل: إن مُنادَمَتَهُم تَزيدُ في العُقُولِ!؛** وتُطْرِبُ الأرواحَ وتَجْلِبُ الأفراحَ!، **إلا أنهم** ضِعافُ القلُوبِ والأكباد؛ يُضربُ بهم المثلُ في ذلك؛ فيقالُ: أضعفُ من كَبِدِ عاشِق!؛ كما في (البصائرِ والذخائرِ) للتوْحيدي، ويُقالُ: يَوْمُنا أَحْمَرُ من قُلُوبِ العُشاقِ عِنْدَ الفراق؛ كما في (خاصِّ الخاص) للثعالِبي، يَبْعَثُ غرامَهُم المِثالُ؛ ويقتادُهم الخيال، بلْ قال عُبَيدُ الله بنُ طاوس في قولِهِ تعالَى: {وخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفا}؛ قال: إذا نَظَرَ إلى النساءِ لم يَصْبِر!!، ونَقَلَه عنه سُفيانُ بنُ سعيدٍ في تَفْسيرِه؛ **وبه تَعْلَمُ السرَّ في تَحْريمِ الشرعِ النظَرَ إلى غيرِ المَحارِم!**، وفي (رَبيع الأبرار) للزمَخْشَري: أن عبدَ الله بن عَجلان النهديَّ العاشقَ المشهورَ لما تَزوجَتْ عَشيقَتُهُ ورَأى أثرَ كَفِّها على ثوبِ زَوجِها ماتَ كَمَداً!.
وزِدْ على هذا أيضاً أن التّنوخيَّ في (نِشْوارِ المُحاضَرةِ) نقلَ عن (سُقراطَ الحَكيم) قولَهُ: إن العِشْقَ جُنُونٌ!؛ وهو ألوانٌ كما أن الجُنونَ ألوان!!. فلا تَعْجَبْ متى عَلِمْتَ أنّ السرّاجَ البغْداديَّ في كتابِهِ المذكورِ آنِفاً قدْ عَقَدَ فَصْلاً في (عُشاقِ الجان!)؛ ومَتى عَلِمتَ أنّ ابنَ أبي حَجَلَةَ قالَ في دِيوانِ الصبَابَةِ: وفي أخبارِ العشاقِ أن عاشقاً عَشِقَ السرَاوِيلاتِ!؛ مِن أجلِ سراوِيلِ مَعْشُوقِهِ؛ فَوُجِد في تَرِكَتِهِ اثنا عَشَرَ حِمْلاً من السراوِيلات!!!، قالَ: وعَشِقَ آخرُ الهاوَناتِ من أجلِ هاوَنٍ مَحبُوبَتِهِ!؛ فَوُجِدَ في تَركَتِهِ عَشرَةُ آلافٍ مِنْها!!، قال: وقد وقفتُ مِنْ هذا على أشياءَ؛ والجُنُونُ فُنُونٌ!. انتهى .
ومن الطرائفِ ما حكاهُ (الأبْشِيهيُّ) في (المستطرفِ) من أن خُطَّافاً وقفَ على قُبّةِ سليمانَ عليه السلاَمُ وتكلَّمَ معَ خُطافَةٍ أُنْثَى؛ وراوَدَها عنْ نَفسِها!؛ فامتَنَعَتْ!، فقال لها: تمتنِعينَ مني ولو شِئْتُ قَلَبْتُ هذه القُبَّةَ!؛ فسمِعَهُ سُلَيْمانُ فَدعاهُ وقال: ما حَمَلَكَ على ما قلتَ؟!؛ قال: يا نَبِيَّ الله إن العُشاقَ لا يُؤاخَذُونَ بِما يقولون!!.
ومِنَ المَنْقول عن حُكَماء الهنْدِ قولُهم: إذا ظهر العشقُ عندنا في رجلٍ أوْ امْرأةٍ غَدونا على أهلِهِ بالتعْزِيَةِ!.
وهذا الذي حَمَلَ ابنَ الجوزِيِّ رَحِمَهُ الله على أن يُقول: واعْلَمْ أن العُشاقَ قدْ جاوَزُوا حدَّ البهائمِ في عَدَمِ مَلَكَةِ النفْسِ في الانْقيادِ للشهَوات!. نَقَلَهُ عنه

النوَيْريُّ في (نِهايةِ الأرب) وقال: **يَعنِي لأنهم استَخْدَمُوا عُقولَهم في تدبيرِ شَهَواتِهم.**

الشهيقُ والزفير:

وفكرتُ في قطْعِ المُسامَرةِ فيما حَوَتْهُ مَنظومَةُ الفقيهِ سيدي عَبدِ السلام الزمُّوري في مَدحِ (الأتاي) وهيَ لَهْجَةُ أهلِ المَغرب؛ يَعْنُونَ بها (الشايَ) الشرابَ المَعْروفَ؛ والذي يُقالُ عنهُ في الأساطيرِ أنهُ عُرِفَ أولَ ما عُرفَ قبلَ أكثرَ من خَمْسَةِ آلافِ سَنةٍ في الصين؛ حينَ وقَعَتْ ورَقَةٌ منهُ في فمِ رَجُلٍ نائم!!؛ وقيلَ: إنه عُرِفَ على جِهَةِ التخْمينِ في الصينِ نَحوَ القرنِ الثامنِ والعشرينَ قبلَ الميلاد؛ وعلى جِهةِ اليقينِ والتأكيدِ في العاشِرِ قبلَ الميلاد!؛ وما وَرَدَ في النظمِ المذكورِ مِن مَنافِعِ الشايِ وفوائدهِ للبَدَنِ والروح!؛ والمُخْتارِ من مَذاقِهِ؛ وساعاتِ تَنَاوُلِهِ؛ ومَجَالِسِ شُرْبِهِ وهَيْآتِها؛ والمَذهَبِ الراجحِ في عَدَدِ المُشاركينَ لِمَجالسِ شُرْبِه؛ وما يَجِبُ فيها وما يُسْتَحْسَن....وما صُنِّف فيه من رَسائلَ؛ وغير ذلك!؛ **كيفَ وهو قَرينُ القَهوةِ ونَظِيرُها؛ إن قِيلَ في أَحَدِهِما شَهيقُ النفْسِ فالآخَرُ زَفيرُها!.**

وأضيفُ إلى هذا ما يقالُ عن (الشاي) مِنْ أنه مُنَبِّهٌ عطري؛ يحتوي على بَعْضِ الزيُوتِ؛ وعلى مادّةِ (الكافيين) التي يتَراوَحُ تركيزُها فيه بين 2.5% و 4.5% في أنواعِهِ المُخْتَلِفَةِ، مع الإشارةِ إلى أن (الشايَ) اسم مشترك لعائلة نباتيةٍ تحوي (600) ستمائة نوع من النباتات!؛ وإن كانت قد صنفتْ كلُّها ضمنَ (28) نوعاً؛ أكثرها موجودٌ في شرقِ آسيا وأمريكا الجنوبية.

وأن الشايَ إنما دخلَ إلى أوروبا عن طريق (الهولنديين) في أوائل القرن السابعِ عشر؛ وأنه انتشرَ بعد ذلك؛ حتى أصبحتْ (إنجلترا) في سنَةِ (1657) البلدَ الوحيدَ لشُرّابِ الشايِ كَثْرةً مكانَ القهوةِ!.

على أنه لما دخلَ أمريكا فرضَ (البريطانيون) ضريبَةً عليهِ!؛ مما أثار سخط الناس؛ ولم يَرُجْ أمرُهُ هناك إلا بعدَ حفلَةِ الشاي الشهيرةِ التي أقيمتْ في (بوسطن) في نِهايَةِ سنة (1773) حيث أصبح بعدها مُنافِساً للقَهوة!.

ويُضم إلى هذا كثيرٌ من المباحثِ والأخبارِ حولَه!؛ منها ما يَتعلقُ بالفقه وأنه لا يجوزُ شرْبُهُ في آنِيَةِ الذهبِ ولا الفضة، وحكم الماء الطهورِ إذا اختلطَ به الشايُ وهل يخرجُ عن طهوريتِهِ أم لا؟؛ وهل يجوز الوضوءُ والاغتسالُ به أم لا؟؛ وهل يُزيل النجاسَةَ أم لا؟؛ وهل على من تاجرَ به زكاةٌ أم لا؟؛ وما ذكره العلماءُ من أنه لا يجوزُ تقديمُ الشايِ والقهوةِ لمن يتعاملُ بالربا!؛ وغيرها من المباحث.

ومنها البحثُ فيما يَتَعلَّقُ به من الطقوسِ والعادات؛ كطُقُوس الشاي اليابانيّةِ للتخلّصِ من التّوَتُّرِ والقلقِ!، وكطَائفَةِ (النورَبَخْشِيين) وهم مِنْ غَلاةِ أهلِ البدَعِ في (كشمير)؛ وهم يشربونَ الشايَ وَحْدَهُ حينَ يُقيمونَ تأبيناً لكلِّ إمامٍ من أئمتهم في تاريخ وفَاتِه!، ومنها عَدُّ بعضِ العلماءِ تقديمَهُ في العزاءِ للمُعَزِّينَ من البدَعِ؛ وبعضهم رآهُ حسناً ولا شيءَ فيه، وما ذُكرَ من أنه يُكْرهُ للمُسْلِمِ أن يُناوِلَ الكافِرَ الشايَ بل يَضَعُ له الفنجانَ على الطاولَةِ ولا حرجَ؛ إلا إن أرادَ تأليفَ قلبِهِ على الإسلام!؛ وعاداتُ الأقوام في إعداد الشايِ؛ والأخضرِ منه على وجهِ الخُصوص!؛ كما حكاها (الدكتور مراد هوفمان السفيرُ الألمانِيُّ الذي اعتَنَقَ الإسلام؛ والذي كان خبيراً بالخمرِ في

جاهليَّتِهِ)؛ وكيفَ رأى طقوسَ إعداده بورقِ النعْناعِ في (ضاحيةِ النخيلِ) ب(واحَةِ العَطُوفِ) جَنُوبَ (الجزائر)!.
وما يتعلق به من الطب والأدب؛ كقولهم من المروءة أن يصب الرجلُ الشايَ لضيفِهِ!؛ وأن يُناوِلَهُ الأكبَرَ ثم الذي عن يَمِينِه، وما يُنْصحُ من منع الأطفال من شربِ الشاي والقهوةِ!؛ وكونه يُشربُ حاراً وبارداً؛ وأنه مُدرٌّ للبولِ فلا يَحْسُنُ شُرْبُهُ قبل النوم!؛ وأنه إن أُخِذتْ منه ربعُ مِلْعَقَةٍ مع (العاقِرقَرْحا؛ وهو نباتٌ هنديٌّ) عالَجَ الأرقَ والحزن!؛ ومع العسلِ يعالجُ التهاباتِ الحنجُرَةِ الفيروسِيّة!؛ ومع الليمونِ بدون السكرِ يَنْفعُ من الأسهال!، وأنَّ الأخْضرَ مِنهُ باردُ الأثرِ يَحْسُنُ شُرْبُهُ في الصيفِ بِخِلافِ الأحْمَرِ منه، وغير ذلك.
وما قيلَ في الأمثالِ من أنّ الشايَ والسكرَ كمَثلِ الدنيا والوفاء!؛ فكما لا يُشْربُ الشايُ بلا سُكّرٍ؛ لا يَهنَأُ العيشُ في الدنيا بلا وَفاء!!.
وما يلْحَقُ بذلك من العجائبِ والغرائب!؛ كدُخولِهِ في وجْبَةِ إفطارِ الأسرى في سُجونِ الصهاينَةِ - أبادَهم الله؛ وفك قُيودَ أسرانا- وما وردَ من الأخبارِ عن مُعْتَقلِ (النقبِ الصحراويِّ) وغيرِهِ من أنّ وجْبَةَ الإفطارِ للسُجَناءِ رغيفٌ من خُبزٍ لكلِّ ثلاثَةِ مُعْتَقَلين!؛ وأربعُ حباتٍ من الزيتُون!؛ وكوبٌ من الشايِ لكلِّ مُعْتَقل!!!.
وما نُقِلَ من اعْتِرافِ الرجلِ الثانِي في مُنَظمةِ فتحٍ (صلاح خلف) بأنَ المُخابراتِ الصهْيُونِيَّةِ استَطاعَتْ تَجْنِيدَ (سِكرْتيرتِهِ)!؛ وأنها حاوَلتْ قَتْلهُ عن طريقِ وضعِ السمِّ في الشاي الذي قدمته له في الصباح، لكنها اعتَرَفتْ قبلَ التنْفيذ!.
دعْ عنك الحديث عمّا يُعرفُ ب**(شاي العرب)** أو **(الشاي الحبَشيِّ)**؛ كما سَمّتْهُ بعضُ المراجعِ القَديمَةِ؛ والذي بدأ اسْتِعْمالُهُ في الحبَشَةِ في القرنِ الخامِسِ عَشرَ الميلادي!؛ فإن المرادَ بهِ (القات)؛ كانوا يُجَفِّفُونَ أوراقَهُ ويَغْلُونها؛ وليسَ هو من الشاي ولا الشايُ مِنه.
وكذلك ما سَمّاهُ الشاعِرُ المَعروفُ أحمدُ مطر ب**(الشايِ المُقَطّر)**!؛ والذي يقول فيه:

وهْوَ مَشْرُوبٌ لدى الأشرافِ! مَعروفٌ ومُنْكَرْ
يَجْعلُ الديكَ حِماراً! وبيـاضَ العينِ أحمـرْ!.

<u>الميزان؟!</u>
على أنّ المَعْهودَ بينَ المصنِّفينَ والكُتابِ – والشيءُ بالشيءِ يُذْكَرُ - تَسْمِيَةُ الكتُبِ والمقالاتِ بَعدَ الفراغِ من كِتابَتِها؛ ولَئِنْ خالَفْتُ ذلكَ في هذا (المَجْلِسِ) فَلَقدْ أجازَهُ جماعَةٌ من العُلَماء؛ وأجابُوا عنه بِوُجُوهٍ مُخْتَلِفة، ولا ضَيرَ فإن الكاتِبَ حينَ يعْزِمُ على الكِتابَةِ في أمْرٍ ما يَسْتَحْضِرُ له صُورَةً كُلِّيَّةً في الذهنِ أولاً؛ ثم يُحاولُ النقشَ على مِثالِها ثانياً، وهكَذا وقعَ لي هُنا!؛ حينَ عَنَّ لِيَ الحديثُ عن (رِجالِ الدهر)، مَعَ **التنْبيهِ على ما تُشْعِرُ بِهِ النِسْبَةُ بين المُضافِ (رجالَ) والمُضافِ إليه (الدهر) مِنَ القِلَّةِ والنُّدْرَةِ المُشْعِرَتَينِ بالتعْظيم!**، ولا يُمْكِنُ مع هذا حَملُ المَعْنَى على شَارِبِي الشايِ ولا القَهوة؛ لأنّهم عَديدُ الرملِ والحَصى في كلِّ عَصرٍ ومِصراً، والمَدْحُ

إنما يَقعُ على الوصفِ الذي يَخْتَصُ به المَمْدُوح لا على وَصْفٍ تَشْتَركُ فيه الخَلائق.
وحَتَّى وإن سَادَتْ بينَ الناسِ مَوازِينُ أُخْرى في أيامِنا هذهِ؛ وآضَتِ الرُّجُولَةُ في الغالِبِ إلى ما لَمْ يكُنْ في الحسبانِ؛ فأرْجَلُ الناسِ أكبرُهم (كَرِشاً) مَثَلاً!؛ أو أكثرُهم تَطبيقاً لِكُتُبِ فَنِّ الطبْخِ!؛ الذينَ إذا نَزلُوا ساحاتِ الموائدِ كانُوا أولَ الوارِدينَ وآخرَ الصادِرين!، أو الذينَ استَبْدَلُوا الحَسْناواتِ بالحَسَناتِ فلا يَهْجَعُونَ مِنَ الليلِ إلا قَليلاً عِنْدَ نِهايَةِ السحَر!، فكلُّ هؤلاءِ في دُخُولِهم في التعريفِ المُشارِ إليهِ بالإضافَةِ نَظرٌ وأيُّ نظر!.
ولو تَبِعْنا ما اسْتَحْدَثَهُ الناسُ منَ الموازينِ لعَددنا في (رِجالِ الدهر) (الموسِيقِيِّينَ السودَ) مَثَلاً!؛ الذينَ أنشَؤوا ما يُسَمَّى ب(موسيقى الكآبَةِ والإيقاع) في أمريكا قبلَ وأثناءَ الحربِ العالميّةِ الثانية؛ حيث حصلَ تغيُّرٌ كبيرٌ في التركيبَةِ السكّانِيَّةِ هناك بِسَببِ هجرةِ مئاتِ الآلافِ من السودِ من الجنُوبِ الريفيِّ إلى وسَطِ الغربِ والمنطقةِ الشماليةِ الشرقيَّةِ ومُدُنِ الساحلِ الغربيَّةِ!؛ في الوقتِ الذي رافقَ هذه التغيُّراتِ تَطَوُّرٌ في اختِراعِ (القِيثَارَةِ الكَهْربائيَّةِ) في أواخِرِ الثلاثيناتِ؛ وتطورٌ في صناعَةِ الاسطوانَاتِ المُمَغْنَطَةِ!؛ ثم البثُّ الإذاعيُّ الذي وُجّهَ للسودِ في عامِ (1948).
ومِن أشهرِ هؤلاءِ (الموسيقيين) (louis jordan) في ثلاثينات القرنِ الماضي؛ الذي طَوَّرَ (رَقْصَ المُرَاوَغَةِ: shuffle boogie) !!، ثم (b.b.king) الذي مارسَ الفنَّ عالَمِيّاً أكثرَ من خَمسينَ سنةً!!؛ ثم ((chuck berryx الذي بدأتْ شُهرتُهُ في الخمسيناتِ وحصَّلَ شُهرةً واسعة!!؛ ثم (little Richard) الذي أثارتْ أغانيهِ رُوحَ التمرُّدِ في الشبابِ الأمريكيِّ مُدَّةً من الزمن!!، ومُرُوراً ب((Issac Hayes الذي وَصَلَ ذُرْوَةَ الشهْرَةِ عامَ (2002)!!، وانْتِهاءً بِمَجْمُوعَةِ (عَدُوِّ المُجْتَمَع: public enemy) والتي شُكِّلَتْ عامَ (1987) وركزتْ على أهدافٍ سِياسيَّةٍ واجتِماعِيَّةٍ؛ وحاوَلتْ تَفادِيَ الأغراضِ التجارِيَّة!!.
ويَلْزَمُنا عدُّ (المُمَثِّلينَ) أيضاً!؛ لا مِنَ المُنْتَسِبينَ إلى أُمَّتِنا فَحَسْبُ؛ وما أكْثَرَهُم!!؛ بل من غَيْرِنا من الأمَمِ أيضاً!، فإنهمْ يَزعُمونَ أن التمْثِيلَ ظاهِرَةٌ ثَقافيَّةٌ عالميةٌ!؛ تتعلّقُ بالتطويرِ الطبِيعِيِّ للخَيالِ، وأن السيْطَرَةَ على العَواطِفِ هي أساسُ الإبداعِ فيه!؛ وهو بهذا يختَلِفِ عن الرسامِ والنّحّاتِ والمُلَحِّنِ والرِّوائِيِّ!.
ومنْهُم من يَراهُ عِلاجاً: فَفِي قَبيلَةِ (دياك) فِي (بُورْنْيُو)، إذَا أرَادَ الساحِرُ أنْ يُخَفِّفَ آلامَ امرأةٍ تَضع، يقومُ هو نفسُهُ بِحَرَكاتِ الوضعِ على سبيلِ التَّمْثيل!، يَعْتَقِدُ أنهُ بذلكَ يُوحِي بِقُوةِ سِحْرِهِ إلى الجَنِينِ أنْ يَظْهَرَ!. كما في كتابِ (قصةِ الحضارة)!.
خَاصةً وأنه عُرِفَ قديماً في نحوِ (330 ق.م) في مَسارِحِ اليُونانِ القَدِيمَةِ التي كانَ يَمُرُّ المُمَثّلونَ فيها بِنِظامٍ تَغذيَةٍ صارمٍ للتدريبِ على الخِطابِ والتّمارينِ الصوتيّة!؛ حيثُ زَعَمَ (أرِسْطُو) أن صَوتَ الإنسانِ وحدَهُ يُسَجِّلُ العاطِفَةَ والبَهْجة!.
ثم هَبطَ التمثيلُ في المسرحِ اليونانِيِّ في القرنِ الثالثِ قبلَ الميلاد؛ واختَفى التمثيلُ في أوروبا مُدَّةَ ألفِ عام!؛ ثم عادَ إلى الظهورِ في المُدنِ الأوروبِيَّةِ أثناءَ العُصورِ الوُسْطَى بين القرن الخامس والقرنِ الخامسِ

عَشرَ؛ **غيرَ أن المُمَثلينَ كانوا طَبَقَةً مَنْبُوذَةً يَومَئذ!؛ وهكذا كان الحالُ في الصين؛ يُنْظرُ إلى المُمَثلِ على أنه من طبقةٍ مُنْحَطّةٍ!**؛ بل إن (تشين لونج) حرّمَ على النساءِ الظهورَ على المسْرحِ حتى كانَ يُمّثّلُ دَوْرَهُنَّ الذكُور!!. ولما ظهرتْ امرأةٌ راهبَةٌ على المسرح في اليابانِ لأولِ مرةٍ في سَنَةِ (1600) كان كما يقولُ (Will Durant) في (قصة الحضارة): **كما هيَ الحالُ في إنجلترا وفرنسا بِمثابَةِ الثورةِ واقْتِرَافِ إثْمٍ مُحَرَّمٍ!.**
في القرنين السابع عشر والثامن عشر عاودَ الظهورَ ثانِيَةً؛ **فظهرَ أناسٌ لا يَدْخُلونَ في (سَمَرِنا) بحال!!؛** من أمثال (وليام شكسبير) و (موليري) وكانت لهما شَعْبِيَّةٌ واسِعَةٌ في (انجلترا) و (فرنسا)!، ومن أمثال (تشارلز ماكلين) و (ديفيد غاريك) في بريطانيا!؛ و (دنيس) و (ماري فرانسس) في فرنسا!؛ ثم في القرنِ التاسعِ عشر المُمَثلُ العاطِفِيُّ الرومانْسيُّ!! (أدمونْدْلين)!.
ثم تَعاقَبَ الأسى!؛ فظَهرَ مِثلُ (stanislavasky) الروسي سنة (1907) الذي حاوَلَ تطويرَ الحالَةِ العاطِفيّةِ للمُمَثِّلِ من خِلالِ تَحفيزِ الحواسِّ الخَمْس!!، ومثلُ النمساوي (janning) الذي خسرَ سُمْعَتَهُ بعد الحرب العالَمِيَّةِ الثانِيَةِ؛ ومات في النمسا سنةَ (1950)!، ومثلُ الكنَديِّ (dan aykroyd) كاتِبِ النصوصِ السينِمَائِيَّة!، ومثلُ الصينِيِّ (zhang yimou) المولودِ في سنةِ (1950) ومُديرِ ما يُسَمَّى بالجيلِ الخامسِ لمُنْتِجي الأفلامِ الصينِيَّة!!، ومِثلُ الأمريكيَّةِ المَعْرُوفَةِ بِ (Dame Judith) المولودَةِ في إسْتُراليا؛ والتي ظَهَرتْ أول مرةٍ في سدنِي؛ وبعد ثلاثِ سنينَ انْتَقَلَتْ إلى أمْريكا؛ ولعبَتْ أبرزَ أدوارِها في (1947) و (1950)!؛ وماتتْ سنةَ (1992)؛ **فهل نَعدُّ هذه في (رجالِ الدّهر) أيضاً؟!.**
<u>والراقِصونَ أيضاً</u>:
سَيُعْتَرَضُ علينا بِهم!؛ ما دُمْنا في زَمانِ اختِلالِ المَوازين!؛ وهم يَزْعُمونَ أن الرقصَ قديمٌ جداً!؛ فقدْ وُجدتْ رُسُوماتٌ في بعضِ الكهوفِ لحَيَواناتٍ راقِصةٍ يعودُ تاريخُها إلى (عشرين ألف سنة)!؛ ويُقالُ هو قديمٌ عند اليونان؛ وأن (لُوسْيَانَ) لما عَجِزَ عن تَتَبُّعِ نشأتِهِ على سطحِ الأرضِ حاولَ أن يجدَها في حَرَكَةِ النجومِ المُنْتَظِمَة!.
وعدُّوهُ من الثقافاتِ الإنسانِيَّةِ التي تَخْدمُ أهدافاً اجتِماعِيةً كالتعْبيرِ عن رُسومٍ وعاداتٍ معروفَةٍ أو الإشارةِ إلى حوادثَ تاريخِيةٍ معروفة!، أو تخدِمُ أهدافاً اقتصادِيَّةً كالرقصِ الذي يُسَببُ السرعَةَ في العملِ؛ كما في رقص زرَاعَةِ الأرزِّ اليابانِيِّ!، أو أهدافاً سِياسِيَّة كما كان رَقْصُ البايريك (pyrrihic)) اليونانيُّ جزءاً من التدريبِ العَسْكري!، أو أهدافاً دينِيَّةً كذلك!؛ قالُوا: وعناصِرُهُ الأساسِيَّةُ أرْبَعَةٌ: 1-استعْمالُ أنماطٍ وأشكالٍ فضائيّةٍ أرضيّةٍ من حركاتِ الجِسْم!؛ 2- سرعةُ الإيقاع!؛ 3- وزنُ الجسمِ والتَّغَلُّبُ على الجاذِبِيَّةِ!؛ 4- اسْتَغلالُ الطاقَةِ وحرِّيَّةِ الحركة!. قالوا: وربما اسْتُخدمَ للعلاجِ أيضاً!!؛ كما حُكِيَ عن (سُقراط) اليُونانِيِّ وكانَ قد اعترفَ بأنَّ لهُ (كَرِشاً مُفْرِطَةً في الكبَرِ والضخامةِ!)؛ وأنه يرجوا عِلاجَها بالرقص!.
هذا مع أنه كانَ في عَهْدِ الجُمْهوريَّةِ الرومانِيَّةِ عَملاً مرْذُولاً يُجَلِّلُ الراقصَ بالعار!!؛ حتى أن (سِيبْيُو الأصْغرَ) أمرَ بإغلاقِ المَدارِسِ التي تُعَلِّمُ الموسيقَى والرقصَ!.

وكذلك رجالُ الأخلاقِ! من الأوروبيين في القرونِ الوُسْطَى كانوا يَعُدُّونَهُ من اخْتِراعِ الشيطان!؛ ولم تَكن الكَنِيسَةُ تَرْضى عنهُ لأنها تراهُ مُغْرِياً بالفسادِ!.
مع أنَّ مَنْشأ أكثَرِ الرقصِ دينيٌّ كما يَزْعُمُون!؛ فقد كانَ خلالَ الشطرِ الأعظمِ من تاريخِ الهندِ لونا من العِبادَةِ؛ وعَرَضَ لجمَالِ الحرَكَةِ إجلالاً للآلِهة!آ، وهكذا الأمرُ في الصين!؛ ومِثْلُهُ (رقصةُ القِناعِ) التي تُعْرفُ في (بُرْكينا فَاسُو)؛ حيثُ يلبَسُ الراقِصُ قناعاً بشكلِ حيواناتٍ تُمَثِّلُ أرواحاً يعتَقِدُونَ أنها تَعيشُ في الغابَاتِ والأنهارِ والتلالِ المُحيطَةِ بهم!؛ وأن الرقصَ يَساعِدُ تلكَ الأرواحَ على حِمايَةِ القَرْيَةِ من القوى الشرِّيرة!، وربما مارسوا هذا الرقصَ عندَ الجنائزِ؛ واحتِفالاً ببُلُوغِ الشبابِ سِنَّ الرشد!.
ومنَ الرقصِ الدينيِّ المُتَسَلِّلِ إلينا على حينِ غَفْلَةٍ من بَعْضِ حُرّاسِ الشرعِ المُطَهَّرِ رقصُ (الدراويشِ المُلتَفِّ؛ أو الرقصُ الدائري)!؛ الذي أُسِّسَ في العصورِ الوُسْطَى؛ وهو رقصٌ دينيٌّ يقدِّرُ أتباعُهُ بالملايين!؛ حيثُ يدورُ الراقصونَ لساعاتٍ طِوالٍ حولَ مركزِ الدائرَةِ التي يقفُ فيها الشيخُ؛ ليُخْرِجَهم بِزَعْمِهم من العالمِ الماديِّ إلى الوجودِ الإلهي!!، ومُؤسّسُهُ جلالُ الدينِ محمدُ الروميُّ!؛ الذي شَيَّعَهُ يومَ ماتَ - من غير المُسلِمينَ - اليُهودُ يقرأُونَ التوراةَ والنصارى يَقْرَأُونَ الإنْجيل!!!، وتُعرفُ طريقَةُ الروميِّ ب(المَوْلَويّة) وتُعْتَبرُ مراسِمُهُم في تركيا جزءاً من (الفلوكلور) التركي!.
وقد حَكى الإمامُ أبو بكرٍ الطُرطُوشِيُّ المالكيُّ أن الرقصَ والتواجُدَ أحدَثَهَ أولَ مَرةٍ أصحابُ السامريِّ الذينَ عبدُوا العِجلَ من دُونِ الله!.
وقد أحدَثُ الناسُ منه أنواعاً وألْوَاناً!؛ ف(التانْجُو) وهو أرجَنْتِينِيُّ النَّشْأةِ!، و(فوكس تروت)!، و(السامْبادِي رُودَا) وهو نوعٌ من الرقصِ الشعْبِي!؛ و(Charleston) الذي يحتاجُ إلى حركاتٍ نشيطَةٍ عالية؛ وكان شعبياً في أمريكا في العِشْرينَات!، والرقصُ البَلْقانِيُّ!، ورقْصةُ (موريس) الإنجليزية!، والرقصةُ الرُّباعيةُ لأمريكا الشمالية!، ورقصَةُ (بولْكا) للفلاَّحين!، ورقصة هرولَةِ الثعلب!، ورقصةُ (رُومْبا)!، والرقصُ الأمريكيُّ اللاتِينيُّ!، و(الديسكُو)!، و(البريك)!، ورقصةُ (الجاز)، والرقصُ الماجنُ (kor dax)!؛ و(أُوبْرا بَكين) وهو رقصٌ بَهْلَوانيٌّ بِثِيابٍ تُمَثِّلُ التاريخَ والشخْصِيَّاتِ الصينِيَّة!؛ و(الباليه) الذي نَشأ في مَحاكِمِ إيطاليا وفرنسا أثْنَاءَ عَصْرِ النهْضَةِ الأوربِيَّة!؛ ومن أشْهَرِهِ (الباليه) الروسيُّ المعروفُ عالَمِيّاً والذي يَحتاجُ لعدَّةِ سنواتٍ من التدريب!!.
نَعَمْ قد عَدَّ جَماعَةٌ من العُلَماءِ من أمْثالِ أبي الطيّبِ البُخاريِّ صديق حسن خان في كتابهِ (أبجدِ العلوم)؛ وكذا حاجي خليفَة في كتابهِ (كشفِ الظنون) الرقْصَ من أنواعِ العُلوم!، غيرَ أنَّ ذلكَ لا يَرتَقِي بالراقِصينَ إلى ما أرَدْناه!، حتى ولو كانوا من المشاهيرِ من أمثالِ: الراقصِ الهَنْغَاريِّ (رُودِلْفْ فون)؛ والراقصِ الألمانِي (wigman)!!، **فإنَّ الرقصَ في كافَةِ كُتُبِ تعْبيرِ الرؤيا (ككتاب الإشاراتِ في علمِ العباراتِ لابنِ شاهين؛ وغيره) غمٌّ ومُصيبَةٌ وفَضيحَةٌ!!؛ وهو كذلك في الحقيقة في الدُّنيا والآخرة!.**
اللهمَّ غُفْراً؛ وعَفْوَكَ يارَبُّ فقدْ طغَى القَلَم، غَيرَ أننا صِرْنا إلى زَمانٍ صَنَعَ الناسُ فيه لأنْفِسِهِمْ مَوَازِينَ لا تَنْتَسِبُ إلى القِيَمِ

بحالٍ!؛ بل هِيَ حَرْبٌ على الدينِ والخُلُقِ!؛ أنكرها حتى الكُتابُ الغربِيون أنْفُسُهم من أمثالِ المُسْتَشرقِ (وِلْ ديورانْت) في كتابِهِ الذي كتبَهُ في عام (1929) وسسماه (مُتَعُ الفَلْسَفة، أو: مَباهِجُ الفلسفة:(the pleasures of philosophy**؛ وعَقد فيه فَصْلاً بِعُنوان (المبادئُ الأخْلاقِيَّةُ والعُهرُ!!** morality and immoraliy**) انتَقدَ فيه الجُرأةَ على الأخلاقِ التي تُمارَسُ على المسارحِ؛ ودعا إلى حَياةٍ أكثرَ طُهراً؛ يُمْنَعُ فيها كلُّ خلقٍ يَضرُّ بالمَجْموع؛ وإلى ضَرورَةِ التمسكِ بالقيودِ الأخلاقية في العِلاقاتِ بين الرجالِ والنساء!؛ حتى انتَهى بِهِ الأمرُ إلى القول: (**we wish to be healthy animals!, but we wish also to be citizens**!: نتَمَنَّى أن نكونَ حَيَوَانَاتٍ تنْعَمُ بالصحة؛ لكننا نتَمَنَّى أيضاً أن نَكونَ مُواطِنين!)، فالحمدُ للهِ الذي هَدانا إلى التي هِيَ أقْومُ؛ وإنما أخاطِبُ الناسَ بما يَعْقِلُون.**

<u>نعَمْ؛ ولكُلِّ أمةٍ رِجالُها أيضاً:</u>

تَزِنُهمْ بِموازِينِها؛ وتُحاكِمُهمْ إلى قِيَمِها؛ وتَضَعُهُم مَواضِعَ المناراتِ والأعْلامِ لأجْيالِها!؛ وقدْ لا يُسَلِّمُ لهم شيءٌ من ذلك؛ خاصةً وأنّ أمْرَ الدنيا مَبنِيٌّ على قولِ القائل:

اطرَحِ الدنْيا فَمِنْ عادَاتِــها تَخْفِضُ العَالِي وتُعْلِي مَنْ سَفَل!.

سَلَّمْنا أنّ فيهم مِنَ العُلَماءِ والباحثينَ والمُفكِّرينَ والمُبْدِعِينَ مَنْ شارَكوا في شَتّى المَعارِفِ الإنسانيةِ؛ وقدَّموا من خِلالِها خَدَماتٍ للبَشَريَّةِ لا مَجَالَ لإنْكارِها!؛ لكِنَّهم مَعَ ذلكَ وإنْ دَخَلُوا في المُرادِ مِنْ (سَمَرِنا) مِنْ وجْهٍ؛ فقد خَرَجُوا مِنْ وُجُوهٍ؛ فكيفَ يقال مع هذا: هم من (رِجالِ الدهر)؟!.

وإلاّ فكَيف نعدُّ من (رجالِ الدهر) الروائيَّ والكاتِبَ الشهير (أرْنِسْتْ همِنْجْوَاي) الذي حازَ بِروايَتِهِ (الشيخ والبحر) جائزَةَ نُوبل للأدب!؛ ثم انتَحَرَ وقتلَ نفسهُ بِبُنْدُقِيَّةٍ قديمَةٍ سنة (1961)!!.

وفعلَ مِثْلَهُ تماماً الكاتِبُ الأمريكيُّ (دايْلْ كارينْجِي) والذي تُعَدُّ كتُبُهُ أكثرَ الكتُبِ مبيعاً في العالم؛ ومنها كتابُهُ (دع القلقَ وابْدأ الحياةَ!)، ومعَ ذلك ركبَهُ من القَلَقِ أمثالُ الجبالِ وأنهى حَياتهُ بِنفْسه مُنْتَحِراً!.

وعلى هذه الشاكِلَةِ الفنانُ الرسامُ الهولَنْديُّ (فان جُوخ) الذي تُباعُ لوحاتُهُ بملايينِ الدولارات!؛ ومِنْها لوحتُهُ (زُهُورُ عَبادِ الشمس) بِيعتْ ب(ستينَ مليون دُولار!)؛ انتحَرَ في (1980).

والمِصْريُّ إسماعيل أدهم الذي كانَ يُتْقِنُ ستَّ لُغاتٍ والحاصلُ على (الدكتوراه) في الرياضياتِ!؛ مات مُلْحداً بِتَغْريقِ نفْسِهِ سنةَ (1940).

والشاعِرُ اللبْنانِيُّ خليلُ الحاوي الذي انْتَحرَ في مَنْفاهُ في (استُراليا) عام (1982)!.

أم تُرانا نَعُد (عَبْد الحَليم شَبانَة) أو من يُعْرفُ ب(عبد الحليم حافظ) الذي انتَحرَ كثيرُونَ بِسَببِ موته!!؛ والذي يقول عنه مُصطَفى أمين الكاتبُ: رأيتهُ...وهو يلعب بالذهب!؛ رأيتُهُ شقيّاً تَعيساً مُعذباً محسوراً مَحْروماً!!.

أم **كيف نَعُدُّ مِنهم أمثالَ (هتلر)** الزعيم الألْمانيِّ الذي نُسِبَ ذِكرُهُ إلى خَبَرٍ في أشراطِ الساعَةِ يُرْوى عن الصحَابِيِّ الجليلِ أبي هريرةَ رضيَ الله عنه!!!؛ **وهو خَبَرٌ مُلَفّقٌ مكذوب** - ذكرهُ(أمين مُحمد جمال الدين) في

كتابِ (هرمَجِدُّون) - عن حربٍ عالَمِيةٍ في آخرِ الزمان يُشْعِلُها رجل تُناديهِ الدنْيا باسمِ (هتلر)!، والذي سيطر حِزْبُهُ الاشتراكيُّ على ألمانيا في سنة (1933)؛ وخاضَ حرباً عالَميَّةً مِن أكثرِ الحروبِ دَمَوِيَّةً في التاريخ، وعَمِلَ على تَلْقينِ الألمانِ ثقافَةَ حِزْبِهِ النازيِّ حتى شَكلَ (اتحادَ البناتِ الألمانيِّ!) للغَرَضِ نفسِهِ!، ثم انتَهى به الحالُ إلى الانتِحار في مَخْبَأ في (بِرْلين) في سَنَةِ (1945) عن ستةٍ وخمسينَ عاماً، بعد أن سحقَتْهُ الأحداثُ كما قالَ وزيرُ تَسليحِهِ (ألبرتْ سيبر)!.

جمالُ المَحَامِل:

والحقُّ أن الذي حَمَلَني على اخْتِيارِ هذا العُنْوان أنهُ وقعَ بصري وأنا أُطالِعُ بعضَ الكُتُبِ على قَوْلِ حَسانِ بنِ ثابِتٍ رضي الله عنه:

يَمْشُونَ في الحُلَلِ المضاعَفِ نَسْجُها مَشيَ الجِمالِ إلـى الجِمالِ البُزَّلِ

فقرأتهُ ثانيةً؛ وثالثةً؛ و....؛... فراقَ لي مَظْهَرُهُ ومَبْناهُ؛ وصفا بعدَ التأَمُّلِ مَخْبَرُهُ ومَعْناه!؛ وقلتُ: أجل؛ إن من الشعْرِ لَحِكْمَةً!؛ وحُقَّ للشعرِ أن يَكونَ عُنوانَ الفضْلِ كما قالَ ابْنُ الوَرديِّ (المتوفى: 749) رحمه الله؛ **ورُبَّ كَلِمَةٍ أوْرَثَتْ صاحِبَها عِزَّ الأبَدِ!.**

وأما الشأنُ في هذا البَيْتِ؛ فهوُ أننا كما رأيْتُهُ في زَمانِنا وأبْناء زَماننا نَعِيشُ عَصْرَ الفِصامِ بينَ كلِّ ما مِنْ شأنِهِ الاعْتِصام!؛ وإن شئتَ قلتَ عَصْرَ الفصلِ بينَ كلِّ ما مِن حَقِّهِ الوصل!؛ دَعْ عنكَ الفصامَ بينَ السلطانِ والقُرْآن؛ وبينَ العِبادَةِ والحياةِ؛ وبينَ العلمِ والعَمَل؛ وبَينَ الأقوالِ والأعمالِ؛ وَبَينَ الأخْلاقِ والخلائق؛ وبَينَ الدنيا والآخرةَ؛... فكلُّ ذلك وغيرُهُ مما تَطولُ حِكايَتُهُ؛ ويأخذُ بِنَواصي الأيامِ شَرْحُهُ!؛ **بل عَدتْ جنايَةُ الفصامِ هذه على جَميعِ قِيَمِنا وثَوَابِتِنا!؛ وعلى مُقَوِّماتِ وُجُودِنا وحَضارَتِنا!؛ لأنهم يُريدُونَنا أمةً بلا تاريخٍ ولا ماضٍ!؛ ومِنْ ثَمةَ بلا حاضرٍ ولا مُسْتَقْبَل!!؛ والتاريخُ كما يقولُ العقادُ الأديبُ: عِرْضُ الأمَّةِ!؛ وزِدْتُ عليه: وَوِعَاءُ حَضارَتِها والنهرُ المادُّ لِوُجُودِها!؛ وما بَقاءُ أمةٍ بلا عِرضٍ؛ وقدْ حُرِمَتْ ماءَ الحياة؟!.**

والذي نَقطَعُ به؛ ويَقْطعُ به كلُّ مُنْصفٍ أن أُمَّتَنا لمْ تكنْ كذلك البَتّةَ؛ بل كلُّ هذا دَخيلٌ مُحْدثٌ لم يَكنْ لهِ وَجُودٌ يَوْمَ أنْ كانتْ حَواضِرُ الإسلامِ مَنْبَعَ العَدْلِ والعِلمِ والمَعْرِفَةِ؛ وتَطبيقاً عَملياً لما جاءَ به الوحيانِ الشريفان.

أما كيفَ وقعَ هذا؟؛ ومتى كانَ وقُوعُهُ؟؛ وما هي أسبابُهُ؟؛ وكيفَ تَمَكَّنَ في أحشاءِ الأمةِ تَمَكُّنَ الداءِ من جَسَدِ المريضِ؟؛ وكيفَ سبيلُ الخلاصِ مِنهُ؟؛ فعلى أَهَمِّيَّتِهِ لا يَتّسعُ الحديثُ الآنَ عنه.

وإذا ضَرَبْنا للمُجْتَمَعِ الإنسانيِّ مِثالاً بالجَسدِ الواحِدِ؛ كانتْ مَنْزِلَةُ أمةِ الإسلامِ مِنْهُ مَنْزِلةَ القَلْبِ من سائرِ الأعْضاءِ!؛ فَمتى صَلَحَ صَلَحَ سائِرُ الجسدِ؛ ومَتى تَطَرَّق إليه الخَللُ والفسادُ فَسدَ مِن الأعْضاءِ بِحَسبِ ذلك.

وإنما ذكرْتُ هذه الجُمْلَةَ هنا لأُنَبّهَ على أنّ الفِصامَ الدخيلَ سَرى إلينا مِنْ غَيرِنا مِن الأمم؛ في مُدَّةٍ ضَعُفَ فيها القلبُ؛ وأَصْبحَ مَحلاً قابِلاً لكَثِيرٍ مِمّا يَرِدُ عليهِ مِنَ الخواطِرِ والأوهام!؛ ونحنُ نَقطَعُ بأنّ صلاحَ القلبِ صلاحٌ للبَشَريَّةِ كُلِّها؛ وأنّ مادَّةَ الحياةِ تَخرجُ من القلبِ وإليه تَعُودُ!؛ غيرَ أنّ علينا أنْ نَعْمَلَ على تنْشيطِها وزِيادَةِ تدَفُّقِها لِيَضْطَلِعَ القلبُ بالدّوْرِ المَطْلُوب.

وشهدَ شاهدٌ من أهلِها:

وقد شاهدْتُ مُنْذُ مُدةٍ يَسيرةٍ في إحدى القَنَواتِ الفضائِيَّةِ بَعْضَ كبارِ الهنادِكَةِ في الهِنْدِ يَصرّحُ في جَمْعٍ كبيرٍ مِنَ الناسِ وعلى رؤوسِ الملأِ مِنهم بأنّ نُهوضَ القارةِ الهِنْديَّةِ بأسرِها يَكْمُنُ في نُهوضِ المسلمينَ فيها؛ وأن رُكودَهم يعني رُكُودَها؛ وأن العالَمَ بأسْرِهِ إذا أرادَ السعادَةَ الحقَّةَ فعَلَيهِ أن يَعْمَلَ والمُسلونَ بما جاءَ في القرْآنِ الكريم!!.

وليسَ هذا بِحَمدِ الله بِدْعاً مِنَ القولِ؛ ولا هُوَ أولَ مَنْ قالَ ذلك؛ بل لا زالَ المُنْصِفُونَ يقولُونَهُ ويُرَدِّدُونَه؛ على كَثْرَةِ المُنْكِرِينَ له؛ والإنْصافُ عَزيز!.

بَيْتُ القصيد:

ومَن سَرّهُ أن يَنظرَ إلى وصْفِ (رِجال الدهر) حَيّا يَمشي على الأرضِ **فليُطالِعْ تاريخَنا** وما حواهُ مِن الكُنُوز في مُدَّةٍ تزيدُ على أرْبَعَةَ عَشرَ قرناً من الزمان؛ فإن كانَ في شَكٍّ من ذلك فلا عَلَيهِ أن يُطَالِعَهُ مُطَالَعَةَ باحثٍ وناقِدٍ شَريطَةَ الإنصافِ؛ **وسيَجدُ في تُراثِنا** – والذي يَحْوي أكثَرَ مِنْ خَمْسمائَةِ ألفِ تَرْجَمَةٍ لأعْلامِ الأمةِ ورِجَالِها – **نَماذِجَ لو كانَ عَشْرُ مِعْشارِها لِغَيرِنا مِنَ الأُمَمِ لَحُقَّ لَها أنْ تَفْتَخِرَ بها**!؛ فكَيفَ إذا اجْتَمَعَتْ اجتِمَاعَها لأمّتِنا؟!.

يُعْجِبُنِي ما نَقلَه (الأستاذُ أحمدُ ديدات) رحمهُ الله عن بعضِ المُؤَرِّخينَ من أنَّ **مِقياسَ العَظَمَةِ في الرجالِ يَرجِعُ إلى اختِباراتٍ ثلاث**: 1- هل كانَ عِندَ مُعاصِريهِ صادقَ العزمِ عاليَ الهِمَّةِ؟. 2- وهل كانَ لهُ من الديانَةِ والخُلُقِ والعِلمِ ما يَفُوقَ بِهِ أترابَهُ ومُعاصِريه؟. 3- ووَراءَ هذا! هلْ تَركَ (تُراثاً) دائماً يَنْتَفِعُ به العالَمُ كافَّة؟.

لقدْ ألّف عالمُ الفلكِ والرياضياتِ المُؤَرِّخُ (مايكل هارت) كتابَهُ المُسَمى (أعْظمُ مائةٍ في التاريخ)!؛ وقد رأيتُ الكتابَ المذكورَ مُتَرْجَماً قبلَ نحو عَشْرِ سنين؛ ووضعَ على رأسِ القائمَةِ نَبِيّ الإسلامِ مُحمَّداً صلى الله عليه وسلم!؛ ووضعَ عيسى عليه السلامُ في المرتَبَةِ الثالثَةِ!؛ وموسى عليه السلامُ في المَرْتَبَةِ الأربَعين!!، وأجابَ على من اعتَرَضَ على تقديمِهِ مُحمداً عليه الصلاةُ والسلامُ بقوله: **إنه الرجلُ الوحيدُ في التاريخِ الذي حَقق نَجاحاً بارزاً على المُستوى الدينِيِّ والدُّنْيَوي!!.**

أما وصفُ (رجالِ الدهرِ) بحُرُوفِهِ - فَضْلاً عن مَعْناهُ - فكلٌّ من رَأيْناهُ قد وُصِفَ به في تاريخِنا فَهُوَ واحِدٌ مِنْ صِنْفَينِ: منَ العُلَماءِ العَامِلين؛ أوالأُمراءِ الصالِحين، أوْ رَجُلاً تَشَبّهَ بِهِم وقد جاوزَ الاخْتِبارتِ الثلاثِ ولا بُدّ!.

و(البَيْتُ) الذي عَوَّلْتُ في هذه المُسامَرَةِ عليه يُوقِفُكَ على الوَصْفِ الجامِعِ لأولئكَ الرجال؛ في الوقْتِ الذي يَصِلُ ما انْفَصَمَ في كثيرٍ من المواطن!.

فالشطرُ الأوّلُ من البَيْتِ وهوَ شَطْرُ (الحُلَلِ) جَمْعُ حُلَّةٍ؛ وهيَ: الثوبُ من إزارٍ ورِدَاءٍ **يَصْلُحُ مِثالاً** لكلِّ نافِعٍ من الدنيا مما أودَعَهُ الله فيها مِن خَزائنِ الحِكَمِ وكنوزِ المَعارفِ وأسرارِ العُلُومِ ومُخَبَّآتِ المَنافِع؛ فهي كتابُ الله المَنْشُورُ كما أن القرآنَ الكريمَ كِتابُهُ المَسْطُور!.

والذي نَبَّهَ على هذا الإتْيانُ بِلفْظِ (الحُلّة)؛ وإنما سُمِّيَتْ بذلكَ لأنها يُتَحَلَّى ويُتَجَمَّلُ بِها؛ ولا يُرِيدُ بالثيابِ المضاعَفَةِ النسجِ أنها ثيابُ الحربِ والقتال؛ لأن الحُلّةَ ليستْ مِن ثِيابِ المُقاتِلَةِ في العادَةِ!.

وأما الشطْرُ الثاني فَفِيهِ تَشبيهُ الرجالِ بالجِمالِ (البِزَّل)؛ جَمْعُ بازِلٍ؛ وهو: المُسِنُّ من الإبل؛ والمُرادُ أنّهم قد اجْتَمَعَتْ لَهمْ أنَفَةُ النفْسِ والصبرُ والتحَمُّلُ مَعَ سلاسَةِ القياد؛ قد حَنَّكَتْهمُ التجاربُ ووعَظتْهمُ الأيام؛ **ومِنْ دُونِ ذلكَ تَقوى الله تعالى وقلْبٌ سليم.**

فالعَجَبُ مِنَ البيتِ كيفَ جاءَ بِوَصْفٍ جَمَعَ بينَ مَصالِحِ الدُنيا والآخرة!!؛ فإن بِناءَ الأمةِ لن يكونَ إلا بِهذين (ما دَلَّ عليهِ شطْرا البيت)!.

والخُلاصَةُ المُنْجِيَةُ في الجَمْعِ بينَ الدينِ والعِلم!؛ خاصةً وقدْ ثبَتَ أنّ دَعْوى الصراع بَينَهما كَذِبٌ مَحْض وإفْكٌ مُفْتَرىً؛ حَتى قالَ الدكتور الفَرَنْسِيُّ (مُوريس بُوكاي): **لمْ أجِد التوافُقَ بين الدينِ والعِلمِ إلا يَومَ شَرَعْتُ في دِراسَةِ القرآنِ الكريم!.**انتهى.

والجَمْعُ بَينَهما؛ وكيفَ نضطلِعُ بِمُهِمَّةِ القيامِ به؛ وكيفَ نَسُوسُ الأُمَّةَ على وَفْقِهِ – وإن جَهِلَهُ أَمَمٌ مِن قومِنا – هو الذي يُعينُ مكانَتنا في قافِلةِ الحياة!.

<u>مُهِمَّةٌ لا بُدَّ مِنها:</u>

والفصامُ بينَ هذينِ الشطرينِ مِنْ أخطَرِ أنواعِ الفصامِ الذي ابْتُلينا به؛ (عِلْمُ الدنيا؛ وعِلْمُ الآخرة)!!، فإنه الداءُ العُضالُ؛ (وشرُّ الداءِ ما بَطَنَ العِظاما)!.

- فكثيرٌ من القَصصِ الذي نَقرَأهُ في تُراثنا سابِقِهِ ولاحِقِهِ ممّا فيه الدعْوَةُ إلى تَعْطيلِ الأسْباب؛ وبقاءِ الإنسانِ مُهْمَلاً في الحياةِ بلا هَدفٍ؛ مُعَطِّلاً لِما أوْدَعَ الله فيها مِن المَنافِعِ تحتَ شِعاراتِ الزهدِ؛ وأن الدنيا والآخِرَةَ ضُرّتانَ لا تَجْتَمِعان!.
- وانْحِسارُ مَفْهُومِ الإسلامِ من رُوحٍ للحياةِ!؛ إلى تَمْتَماتٍ وأورادٍ لا تَتَجاوَزُ المِسْبَحةَ واللسان!.
- والآثارُ العَمَلِيَّةُ لهذا الفِصامِ على الأمَّةِ والمُجْتَمع!.
- والحَمْلَةُ النكداءُ على الإسلامِ ونبيهِ صلَواتُ الله وسلامُهُ عليه!.
- وكثيرٌ من الأفكارِ والمَفاهيمِ التي تَتَناثَرُ هنا وهناكَ؛ ويُرادُ لها أن تَروجَ لِتَأصِيلِ الفَصْلِ بينَ المَصْلَحتَين!.
- وكثيرٌ مِن ناشِئِ الخِصامِ الذي يَعْلُو بِقَتامِهِ حَاضِرَنا ويُشَوِّهُ ماضِيَنا!

كلُّ ذلك راجِعٌ إلى الجهلِ بهذه الحقيقةِ؛ وأينَ هِيَ مواطِنُ اللقاءِ بينَ مصالِحِ الدارِينَ؟!؛ وأينَ هيَ مواطِنُ الافْتِراقِ؟!؛ وخاصَّةً في عالَمٍ لا يَتَوقفُ عنِ التَّغَيُّرِ كعالَمِ اليوم؛ وتتبَدَّلُ فيه السياساتُ بينَ الساعَةِ والأخرى؛ مما يُوَلِّدُ تَفاوُتاً في وُجُوهِ اعتِبارِ المصالحِ ولا بُدّ!.

<u>وحتى نَتَجاوزَ ذلك؛ يَتَعيَّنُ علينا ابْتِداءً أمْران:</u>

<u>الأول:</u> معرِفَةُ المَنْفَذِ الذي تَسربَ إلينا من خِلالِهِ ذلك؛ ويَسْتَوجِبُ ذلك ولا بدَّ دِراسَةَ تاريخِ العصُورِ الوُسْطى في أوروبا على وَجْهِ الخُصوصِ دِراسَةً مُسْتَفِيضةً واعيةً تَعْتَمِدُ مَبْدأَ التحليلِ والنَّقدِ واسْتِخْلاصِ الفوائدِ والعِبَر، **وإنما خَصصنا تاريخَ أوروبا بالذكرِ** - معَ حَاجَتِنا إلى دِراسَةِ تواريخِ غيرِها من الأمم أيضاً – لأسبابٍ عدّةٍ يطولُ ذكرها؛ **ولأنَّ ما كانَ في تِلْكَ العُصورِ وفي تلكَ الأمَمِ مِنَ الأمراضِ انْتَقلَ إلينَا** عِنْدَ نُقْطَةِ التحوُّلِ التاريخِيِّ في الخطِّ البَيانِيِّ للأُمّتَيْن!؛ خَطِّنا الذي اتّجَهَ هُبوطاً والخَطِّ الأوربِيِّ الذي اتّجَهَ صُعُوداً بعدَ الفَتْحِ العُثمانِيِّ للقسطنطينيةِ سنة(857)؛ **ولأنَّ العداوَةَ بينَ الدينِ والعِلمِ إنما نَشأتْ في الأممِ الغرْبِيَّةِ** حينَ عارَضَتِ الكَنِيسَةُ في العُصورِ الوُسطى العلومَ التجْرِيبِيَّةَ حذراً

من تَأثرِ تلك المُجتَمَعاتِ بالمسلِمينَ الذين نُقلتْ عنهم كثيرٌ من هذه العلوم!؛ ومن ثم انتقلَ هذا العداءُ إلى المسلمين على جهلٍ بتاريخهم وبما في دِينهم من الرابطةِ الوثيقَةِ بين الدينِ والعلم!.
بل وفي (التوراة): أن الشجرةَ التي أكل مِنها آدمُ عليه السلام كانتْ شجرةَ المعْرِفةِ!؛ وأنه إنما ازداد بصيرَةً بعد أن عصى ربّهُ وأكلَ مِنْها!!، فانْظرْ إلى مَنْبَتِ السَّوْءِ الذي غُرِسَتْ فيه بذرةُ الفِصامِ المَشْؤومِ!؛ ولا تكنْ منَ الغافلين.
ولأنّ القَاعِدةَ المُطردَةَ لِحَرَكَةِ الحياةِ والسُنَنِ الكَوْنِيَّةِ والاجتِماعِيَّةِ التي تَسيرُ الحياةُ على وفْقِها تَقضي بِعِلاقَةٍ تَبادُليَّةٍ بين الغالِبِ والمَغْلوبِ؛ فما كانَ من عَوامِلِ الضعْفِ وأسبابِ الانْهِيارِ في الأولِ قبلَ أن يَصيرَ غَالِباً سرى إلى الثانِي؛ والعكسُ بالعَكْسِ أيضاً!.
<u>والثانِي:</u> العَمَلُ على تَوثيقِ عُرَوَةِ الوصْلِ بينَ شَطرَي الحياة؛ وأنّ كلاًّ منهما مُكَمِّلٌ للآخر؛ ونفيُ كل ما يُتَوَهَّمُ من التعارضِ بَيْنَهما؛ وأنْ لا قِيامَ لأمْرِ الأمَّةِ إلا بذلك.
يقولُ محمدُ أسد أو (L. weiss) قبل إسلامه: إن النصرانِيَّةَ تَنْظرُ إلى عالمِ المادَةِ على أنه شَيطانِيٌّ في أساسِه!؛ بَينَما عالَمُ الروحِ إلهِيٌّ خَيِّرٌ!، أما الإسلامُ فلا يُفرِّقُ بين مَطَالِبِ الجسدِ ومطالِبِ الروح.
ومِنَ البراهِينِ العَمَليَّةِ على بُطْلانِ دعْوى الفصام بين الدين الحقِّ والعِلمِ النافِعِ التي يُشيرُ إليها (درَابَر) في كتابِهِ الشهيرِ (الصِراعُ بينَ الدينِ والعلم!) اعْتِناقُ كثيرينَ مِن عُلماءِ الغربِ وكِبارِ باحِثيهِ ومُفَكِّريهِ للدينِ الحقِّ دينِ الإسلام؛ من أمثال عالمِ الرياضياتِ الكَنَدِيِّ (جاري مِيلر؛ وبعدَ إسلامِهِ: عبدُ الأحدِ عُمَر)؛ والجرَّاحِ الفَرَنْسِيِّ (موريس بوكاي: رئيسِ قسمِ الجِراحَةِ في جامِعَةِ باريس؛ وقصَّةُ إسلامِهِ مِنْ رَوائعِ القصص؛ أسلم عام:1982) ؛ وعالمِ الأجنَّةِ الشهيرِ (كيث مور: Keith Moore؛ صاحبِ الكتابِ الشهيرِ في الطبِ الذي تُرْجمَ إلى أكثر من خمسٍ وعشرينَ لغةً!: (الإنسانُ النامي؛ the developing human)؛ وعالمِ التشريحِ التايْلَنْديِّ (تاجات تاجسن)؛ والعالمِ المَجَرِيِّ (عبدِ الكريمِ أرْمانْيُوس؛ الذي وصَفَهُ العقادُ بأنه عَشرةُ عُلماءٍ في واحد!)، وكثيرينَ من أمْثالِهمّ.
إنني أرى ثَمَّةَ قُصُوراً واضِحاً في إفْهامِ الناسِ هذه الحقيقَةِ؛ والكلامُ عن نَفْيِ العداءِ بين الدين والعلم لا يَزالُ مُكَبّلاً بكثيرٍ من القُيُودِ!؛ مُتَأثِّراً بِحالَةِ الضعْفِ التي مَرّتْ بالأمةِ خَلالَ قُرونٍ عدة؛ قاصراً عن مُواكَبَةِ الجديدِ المُعاصِرِ؛ فضلاً عن تَفْيِيمِهِ والتَّمْيِيزِ بَينَ الضارِّ منهُ والنافِعِ؛ والتَّصدِّي لِطُغْيانِ المادَّةِ والحياةِ المادِّيَّةِ في عالَمِ اليوم.
وبالله التوفيق.